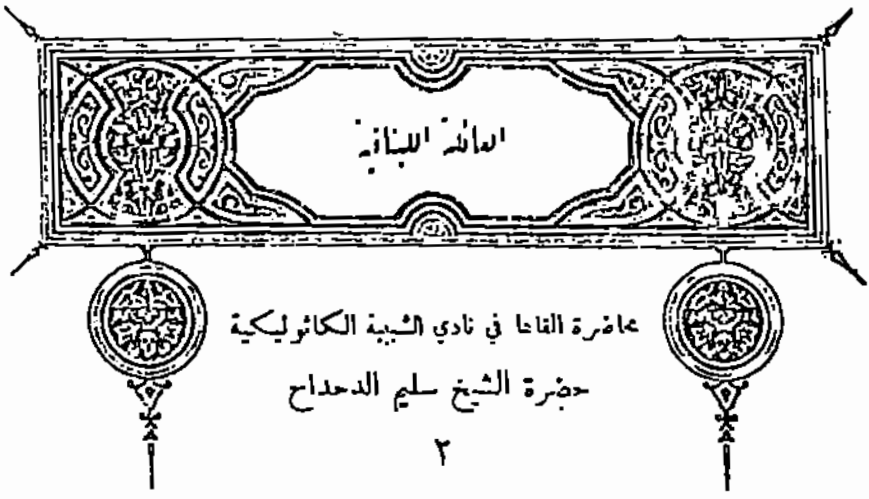

بعد ان ذكرنا ميزات العائلة اللبنانية اجمالاً ، يحسن بنا ان نصف ميزات العائلة اللبنانية بطبقة مخصوصة من طبقاتها فنتخذ مثالاً عائلة القروي الفلاح.

فلنذهب الى قرية من قرى هذا الجبل العزيز ، سواء كانت على قمة في سفح جبل عالٍ او في بطن وادٍ ، ولنقف امام بيت من بيوت الجبل من الهندسة القديمة ، فنرى حائطين طويلين الواحد من الشمال مثلاً والاخر تجاهه من الجنوب ، وحائطين اقصر منها الواحد من الشرق والاخر من الغرب ، ولا يتجاوز علو هذه الحيطان اربعة اذرع . وهي مبنية بالحجارة اليابسة مرصوفة مداميكها بدون «مونة» واكثر الاحيان بدون تقصيب ايضاً . سقف هذا البيت بالجذوع والاخشاب وفوقها التراب المرصوص لمنع وكف الماء في الشتاء . وقد استند السقف الى عمودين او اربعة او ستة . وجعل مدخل هذا البيت جهة الشرق لتلجه الشمس قبل كل شيء ، وامامه رواقة مبنية بالشكل ذاته او قبو سقفه معقود بالحجارة فقط وذلك لاجل الماشية : البقرة او الثور او الحمار مع علفها وحاجات البيت كالحطب للوقود في الشتاء وما شاكل ذلك من ادوات القز وغيرها.

دخلنا هذا البيت في الشتاء فاذا بوسطه قرب احد العواميد مسطبة في جهة منها موقدة فيها نار الحطب تتأجج ، وقد اجتمع حول الموقدة اهل البيت للاستدفاء في البرد القارص ، اذ امتنع عليهم الخروج وربما استحال . وهم جلوس على جلود الغنم والمعزى حول الموقدة وقد اسودت الجذوع والاخشاب في سقف البيت من شدة دخان الوقود . فكان لها منه لون دهان او صباغ خاص !

في الصدر بالقرب من العمود ، ترى رجلًا في السبعين من سنيه والى جانبه عجوز لا تقلّ عنه كثيرًا في السن ، ومن حولهما رجلًا في الاربعين وبجانبه ستة ابناء اصغرهم في العاشرة واكبرهم في العشرين من العمر ، وبقربهم امرأة في الاربعين تقريباً . هم الجد والجدة والوالدان والاحفاد : عائلة تقرأ في عيون افرادها النباهة وطيب القلب وسلامة الضمير ، وترى على وجوههم لوناً لا تلقاه في سكان المدن وقد اكسبتها النار المشتدة في الموقدة اشتداد الاحمرار .

هذه العائلة تجتمع في المساء عائدةً من شغل الحقل وفلاحة الرزق ، فتعنى بالنظافة ، ثم تصلي ، ثم تأكل طعام المساء ، ثم تجلس حول النار للاصطلاء : للجد مركزه ، وللوالد محله ، ولكل واحد موضعه ، يتحدثون عن اشغال النهار وعما ينوون فعله من الشغل في اليوم التالي . ثم يرقدون ، الواحد بعد الاخر ، بدون هم الى الفجر . فيستيقظون على صوت « الاختيار » ، نهض باكرًا يصلي بصوت عال فيشاركونه في الصلاة ، ويباكر كل واحد الى عمله . فلا تشرق الشمس الّا ويكون الفلاح في عمله ، كأنه يشتغل في ارضه . فلا يهدأ طول النهار حتى غياب الشمس يظلّ كادًا ، وانت لا تعرف ان تميّز هذا العامل مشتغلًا في ارضه منه مشتغلًا بالاجرة عند القريب ؛ يغار على ارض صاحب الشغل ، كما يغار على ملكه ؛ فالواجب يدعوه الى حسن العمل اينما اشتغل ، ويعتقد انه ، ان لم يعرق في عمله ويتعب ، لا يستحق اجرة . فهو يتذكر دائمًا قول الرب «بعرق جبينك تأكل خبزك» ، فلا يعرف شريعة الثماني ساعات ، ولا يحسب نفسه مستحقًا للاجرة اذا تقاعد عن العمل نهارًا ، او اذا بدأ العمل بعد شروق الشمس او انتهى قبل مغيبها .

لم يكن حينئذ من خلاف بين طبقات الشعب : بين الفلاحين والفعلة ، واصحاب الارض والاغنياء . بل كانت طبقات الناس كلها متفاهمة متراضية سعيدة ، كلّ منها قنوع بحالته . وكانت اعظم مطامع الفلّاح ان يبقى اولاده واحفاده مزارعين مشاركين عند صاحب الملك ذاته ، وعند اولاده وورثته من بعده . واني اعرف عائلات من الفلاحين توارثوا مشاركة المساقاة ، مدة جيل وجيلين في نفس «العردة» ، كما توارثها ملّاكوها عن الاباء والاجداد . وهذا ما

اوجد المثل المشهور : « فلّاح مكفي سلطان مخفي ».

فكان كل فرد من العائلة يذهب في الصباح الى عمله ! تنهض الام الى الاهتمام بامر بيتها معتنية بتدبيره مهيئة كل ما يعود الى راحة عائلتها من غسل، وترتيب ، واخذ زوّادات الى العملة ، وعناية بالحيوانات.

والولد يذهب الى المدرسة حيث كان كاهن الرعية ، او راهب من الدير المجاور ، يدرّس اولاد الرعية : الفقراء والاغنياء ، اصول القراءة والكتابة في اللغتين السريانية والعربية مع الصلوات وخدمة القداس والالحان البيعية. وكثيراً ما كانت هذه المدرسة تحت ظلّ سنديانة القرية او شجرة كبيرة فيها.

كان يُرى المعلم في مدرسته ربّاً مهاباً ، يحترمه الاولاد احتراماً عميقاً خصوصاً اذا كان كاهناً ، لا يجسر احد على ان يرفع نظره من كتابه او كرّاسه . يرون فيه الكاهن والمدبر ، والمهذّب ، والقاضي ، والحاكم العادل المستبد الذي قُلّد السلطة المطلقة عليهم ، لا من قبل وظيفته فحسب ، بل من قبل والديهم. فان الوالد عندما جاء بولده للمرة الاولى الى المعلّم سلّمه اياه قائلاً : « خذ ! هذا ابني قد عهدت به اليك لي الجلد والعَظم ولك اللحم . فلا اعرفه الّا منك. »

فكان الولد اذا عاقبه المعلّم لا يفزع الى ابيه ولا الى اهله من العقاب . بل كان اذا لاذ بابيه يناله بعقوبة اشدّ قساوة من تلك . لذلك كان ينصرف الى الدرس ويحترم اوامر معلّمه . وكان كتابه الكرّاسة السريانية ، وكتاب المزامير الداودية ، او كتاب صلوات يدرسه من الجلد للجلد ؛ ويدرس الخطّ ، وبعض مبادئ الحساب.

فيخرج من مدرسة الضيعة رجلٌ دين وتقوى ، يتقن قراءة صلوات عديدة وقد تربّى على خلق لا يحيد عنه : تعلّم احترام والده في بيته ، وتعلّم احترام معلّمه في مدرسته . فاذا خرج الى العالم وصار رب عائلة تعوّد ان يحترم السلطة المدنية ، ولا يرى في ذلك غضاضة لانه يكمل ما كان اقتبسه طفلاً وولداً وشاباً ، معتبراً « ان كل سلطة من الله »

ولم تكن تختلف حالة اولاد الاغنياء والمشايخ في مدرسة الضيعة عن حالة

اولاد الفلاحين . فالتربية عند المعلّم كانت واحدة من حيث الدين والآداب والعمل .

* * *

ولنجلس في سهرة من سهرات الشتاء في احدى تلك العيال لنسمع حديث تلك العائلة :

يتكلم الاب فيصمت جميع من في البيت . فيأخذ يروي لاولاده احاديث عن شبوبيته ، وينقل لهم ما رواه له والده وجدّه من تاريخ العائلة والقرية وتاريخ الحكّام من اصحاب المقاطعة ، ويحدّثهم احياناً عن اشغاله في النهار وهو يتحاشى ان يروي لهم ما يمسّ بالآداب ويضرّ بالاخلاق . واذا روى روايةً من هذا النوع يجعلها امثولةً يتحاشى بنوه وساموه الاقتداء بصاحبها .

ولم تكن المرأة تتكلم بحضرة زوجها ، ولا الولد بحضرة امه وابيه . وكان اذا زار العائلة زائر غريب تحتجب الفتاة ولا تظهر الّا عند داعي الواجب للعمل او لقضاء حاجات العائلة في خدمة الزائر والضيف . واشد ما يكون احتجابها اذا كان الزائر شاباً جاء يطلب يدها . بل كانت الفتاة اذا ما حملت جرّتها ذاهبة للعين للاستقاء ورأت طالبها على الطريق ، تعود ادراجها الى البيت او تسارع خطاها لئلّا يراها وحدها . ولم يكن ذلك مقتصراً على عائلة الفلّاح الفقيرة بل كان يتناول جميع طبقات سكان لبنان .

وكانت العائلات القروية تغار على بعضها وتحافظ افرادها البعض على الآخر ، فاذا مرض احد اعضاء عائلة في قرية ، تقولون ان عائلات القرية كلها مريضة معه . واذا مات واحد كان الحزن شاملاً كأنّ الميت ميت الجميع .

واذا حدث فرح كأن تزوج احد سكان القرية يشاركه جميع من في القرية بمظاهر المسرّة وبالمال ايضاً ، فكان يأتي ربّ كل عائلة بما يسمونه نقوطاً فيقدّمه للعروس فيكون بمثابة مساعدة على القيام بواجبات العرس ، ولا يضطر المهدى اليه ان يعيد هذا النقوط من مال تقدي او غيره الّا عند تزوّج المنقّط .

ولم يكن اهتمام عائلات الوجوه والمشايخ بالعائلات القروية اقلّ من اهتمامها

بعضها ببعض. او بالحري ان اهتمام العائلات الكبيرة كالمشايخ واصحاب الاقطاع كان منظماً بابنـاء العائلات القروية، خصوصاً وقت الفرح والحزن، فكثيراً ما كان صاحب المقاطعة او صاحب الملك الذي تشتغل فيه عائلـة القروي الفلّاح يقوم هو بجميع نفقات عرس فلّاحه او مصاريف دفن الميت من افراد عائلته. فكانت القرية بهذه الصورة عائلة واحدة.

ومما كان يحفظ العائلات ويصونها من الفساد هو — كما سبق لنا القول — زواج البنين والبنات في سن العشرين او ما فوقه قليلًا، زواجاً متناسباً لا دخل فيه لتجارة البنات ومطامع الراغبين ولا لتفاوت درجات العمر.

وخلّة العائلة اللبنانية وحليتها كانت الصدق لاسيما في المعاملات. فقد كان الرجل يستدين مبلغاً من المال دون سند ولا قيد ولا شرط، ويدفعه في استحقاقه دون مطالبة. ولم تكن هناك فوائد تثقل كاهل المستدين.

حياة جميلة نتخيلها حياةً شعرية لكنهـا حقيقة ملموسة كان يشعر بهـا النصارى. وقد امتاز جبل لبنان بهذه الحياة، حياة السكينة والوفاق والسلام حتى ضُرب المثل المشهور «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان!»

وقد اشتهرت هـذه الصفات في القروي المسيحي حتى اصبحت القرى التي يسكنها ملجأ لكل خائف او مضطهد، فلم يتردّد الامير التنوخي الدرزي في تحبئة ابني اخته المعنيّين المسلمين عند ابرهيم الخازن في احدى قرى كسروان في وسط كلّه من المسيحيين. والى هؤلاء القرويين المسيحيين كان يسلّم الامراء والمشايخ الدروز املاكهم واموالهم، وكانوا يشيدون لهم الكنائس ليقنعوهم بالسكنى في قرى الشوف وجزين. كل ذلك يدلكم على مبلغ مـا كانوا يعتقدون فيهم من الصدق والاخلاص والنزاهة.

* * *

هذه كانت حالة العائلة اللبنانية، وعلى الاخص عائلة الفلّاح. وقلّما ترى الغريب آتياً للقرية، وقلّما يذهب ابناؤها الى الخارج. وظلت هـذه الحياة التقليدية على حالها الى اواسط القرن المنقضي.

لكن لمَّا كثرت المداخلة الاجنبية ، ودخل قرى الجبل الغرباء ، وتغيّرت ضروريات المعيشة ، وضاق نطاق الجبل على سكّانه فاخذوا يغادرون قُراهم سعياً وراء اكتساب الرزق في المدن والسهول المجاورة اولاً ، ثم في القطر المصري ، واخيراً في اطراف اميركة وافريقية واوسترالية ؛ لمَّا رأى هؤلاء الفلاحون ما شاهدوه من الامور والمشاهد التي لم يكن يدور في خلدهم وجودها ، وهم على الغالب من الطبقة غير المتعلّمة ، سكروا بما رأوه وسمعوه ، فتغيّرت احوالهم ومعيشتهم :

فعدم التعليم الكافي ، والمهاجرة وكثرة الاختلاط بمن هم على غير اخلاقهم وعوائدهم ، وزيادة المطامع وعدم التدريج في التطوّر ، والذهول عن مداومة التمسُّك بالتقاليد الدينية الموروثة ، والميل الى التشبه بما نراه من الاخلاق الفاسدة ، وتشتت الوف من اللبنانيين في كافة الاقطار ، كل ذلك افقد العائلة اللبنانية هيئتها وحياتها القديمة . فلم يعد لها صبغةٌ تعرف بها . ولم تعد ممتازةً بتلك الصفات والمبادي التي كانت تميّزها . زد على ذلك ان قرى الجبل لم تعد منفردة كما في الماضي عن سائر العالم فالتي — وهي نادرة جداً — لم يهاجر احد من اهلها وسكانها اتاها الغرباء والسياح من كل الطبقات ومن جميع اصحاب الاخلاق والمبادي الحسنة والفاسدة .

فاذا اردنا الكلام عن الحياة اللبنانية في الوقت الحاضر ، وما تأتى عليها من المحاسن والعيوب ، لنقابل بينها الآن وبينها في الماضي ، يطول بنا المجال كثيراً . وانني اقترح هذا الموضوع على غيري ممن يكون اطول باعاً واقدر مني على ايفائه حقه .